صِلَةُ الرَّحِمِ

في الحديثِ الصحيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ »(١) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ ، وَيُنَادِي مُنَادٍ : يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ ، وَللهِ عُتَقَاءُ مِنْ النَّارِ ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ »(٢) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »(٣) .

وعَنْه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »(٤) .

---

(١) البخاري (٣١٠٣) ، مسلم (١٠٧٩) .
(٢) الترمذي (٦٨٢) ، النسائي (٢٤١٧) ، ابن ماجه (١٦٤٢) .
(٣) البخاري (٣٨) ، مسلم (٧٥٩) .
(٤) البخاري (٣٧) ، مسلم (٧٥٩) .

شهرُ رمضانَ شهرُ الصيامِ ، وهو أحدُ أركانِ الإسلامِ ، فضَّله اللهُ على شهورِ العامِ ، وأفاضَ فيه على المسلمين الخيراتِ والبركاتِ ، وضعفَ لهم فيه الحسناتِ ، وتجاوزَ فيه عن الذنوبِ والسيئاتِ ، وأقالَ فيه العثراتِ ، فهو شاهدٌ للمحسنين ، وشاهدٌ على المعرِضين والمفسدين ، يجيءُ أوّلُه ، فما أسرعَ انقضاءَ آخرِه ، فأرُوا اللهَ في كلِّ رمضانَ مِن أنفسِكم خيراً بالتوبةِ من المحرَّماتِ ، وبفعلِ الطاعاتِ ، فإن هذا الشهرَ من أسبابِ مكفِّراتِ الذنوبِ ، والشفاءِ من العيوبِ ، فَرضَ الله جلَّ جلالُه علينا صيامَه ، وسنَّ رسولُ اللهِ ﷺ قيامَه ، وبشَّرَ على القيامِ بذلك أعظمَ البشائرِ ، فليُغْتَنَمْ هذا الشهرُ يا ذوي الألبابِ والبصائرِ .

إنّ التقوى هي علّةُ الصيامِ ، وإنّ صلةَ الأرحامِ أفضلُ أوقاتِه في رمضانَ .

صلةُ الرحمِ من العباداتِ التعامليةِ

إنّ رمضانَ شهرُ البرِّ والصّلةِ ، وشهرُ التعاطفِ والمرحمةِ ، فالقلوبُ تلينُ لذكرِ اللهِ ، والنفوسُ تستجيبُ لداعي اللهِ ، فلا ترى من جرّاءِ ذلك إلا أعمالاً زاكياتٍ ، وقرْباً من ربّ الأرض والسماواتِ .

ذلك لأنّ الإسلامَ يهدِفُ إلى بناءِ مجتمعٍ متراحمٍ متعاطِف ، تسودُه المحبّةُ والإخاءُ ، ويهيمِنُ عليه حبُّ الخيرِ والعَطاء ، والأسرةُ وحْدةُ المجتمعِ ، تسعَدُ بتقوى اللهِ ورعايةِ الرّحِم ، لذلك اهتمَّ الإسلامُ بتوثيقِ عُراها ، وتثبيتِ بُنيانِها ، فجاء الأمرُ برعايةِ حقّها بعدَ توحيدِ اللهِ وبرِّ

الوالدين ، قال جلّ وعلا : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء : ٣٦] .

وقُرِنَت مع إفرادِ الله بالعبادةِ والصّلاةِ والزّكاة فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ . . . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تَعْبُدُ اللهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ »[1] .

وقد أُمِرَتِ الأممُ قبْلَنا بصِلة أرحامِها ، قال سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [البقرة : ٨٣] .

ودَعا إلى صِلتها نبيُّنا محمّدٌ ﷺ في مَطلع نُبوّته ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ : « كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا ، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي ، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا نَبِيٌّ ، فَقُلْتُ : وَمَا نَبِيٌّ ؟ قَالَ : أَرْسَلَنِي اللهُ ، فَقُلْتُ : وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ . . . »[2] .

وسألُ هِرقل أبا سفيانٍ عن النبيّ ﷺ ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ

---

(١) البخاري (١٣٣٢) .
(٢) مسلم (٨٣٢) .

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ : « سَأَلْتُكَ : مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ ، وَالصِّدْقِ ، وَالْعَفَافِ ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، قَالَ : وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ »[١] .

وأمَر بها عليه الصلاةُ والسلامُ أوّلَ مقدَمِه إلى المدينة ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قِبَلَهُ ، وَقِيلَ : قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ، ثَلاَثًا ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلاَمَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ »[٢] .

وهي وصيّةُ النبيِّ ﷺ ، قال أبو ذرٍّ : « أَوْصَانِي خَلِيلِي بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ أدبَرَتْ »[٣] .

إنّ صِلةَ ذوي القربَى أمارةٌ على الإيمانِ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « . . . وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ . . . »[٤] .

صلةُ الحرم عبادةٌ جليلةٌ مِن أخصِّ العباداتِ ، يقولُ عمروُ بن دينارٍ : « مَا مِن خَطْوةٍ بعْدَ الفريضةِ أعظمُ أجرًا من خَطوةٍ إلى ذي الرّحمِ » .

---

(١) البخاري (٢٥٣٥) .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٥) ، وابن ماجه (١٣٣٤) واللفظ له ، وأحمد (٢٣٨٣٥) .
(٣) أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٥٧) .
(٤) البخاري (٥٧٨٧) .

ثوابُها معجَّلٌ في الدنيا ، ونعيمٌ مدَّخرٌ في الآخرةِ ، قال ﷺ : « لَيْسَ شَيْءٌ أُطِيعَ اللهُ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ ، ولَيْسَ شَيْءٌ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنْ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ »(١) .

القائمُ بحقوقِ ذوي القربَى موعودٌ بالجنّة ، فعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ : « . . . وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ ، ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ ، رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى ، وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ »(٢) .

أمَرَ الله بالرّأفة بالأرحام كما نرأَفُ بالمِسكين وابنِ السبيلِ ، قال عزّ وجلّ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

وحقُّهمْ في البذلِ والعطاءِ مقدَّمٌ على اليتامَى والمساكينِ ، قال سبحانه : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

وللسخاءِ عليهم ثوابٌ مضاعَفٌ من ربِّ العالمين ، فعَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ الضَّبِّيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الْقَرَابَةِ اثْنَتَانِ ؛ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ »(٣) .

وأوّلُ مَن يُعطَى مِن الصدقةِ هم الأقربون مِن ذَوِي المَسْكنَة ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : « كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ

---

(١) البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٥) ، وفي شعب الإيمان (٤٨٤٢) ، والقضاعي في مسنده (٨١٤) عن أبي هريرة .
(٢) مسلم (٢٨٦٥) .
(٣) النسائي (٢٣٦٣) ، ابن ماجه (١٨٤٤) ، الدارمي (١٦٨٠) .

مَالاً ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا ، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ شِئْتَ ، فَقَالَ : بَخٍ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا ، وَأَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ ، قَالَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ ، وَبَنِي عَمِّهِ »[1] .

فالباذلُ لهم سخيُّ النّفسِ ، كريمُ الشّيَمِ ، يقولُ الشعبيُّ رحمه اللهُ : « ما ماتَ ذو قرابةٍ لي وعليه دينٌ إلاّ وقضيتُ عنه دينه » .

ماذا تعني كلمةُ (الأرحام) ؟

المعنى الأولُ : رحمُ الدِّينِ ، وهي رحمٌ عامّةٌ تشملُ جميعَ المسلمين ، وتتفاوتُ صلتُهم حسبَ قُربِهم وبُعدِهم عن الدِّين ، وكذلك حسبَ قُربِهم وبُعدهم المكاني .

ويدلّ على ذلك قولُه تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات : ١٠] .

فأثبتَ اللهُ الأخوّةَ الإيمانيةَ لجميعِ المسلمين .

---

(١) البخاري (١٣٩٢) ، مسلم (٩٩٨) .

وقولُه : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٢٢] .

المعنى الثاني : رَحِمُ القرابةِ القريبةِ والبعيدةِ ، من جهةِ الأبوين ، ولكلٍّ مِن هذين النوعين حقوقٌ ونوعُ صِلَةٍ .

إنّ الروابطَ تزدادُ وُثوقًا بالرّحمِ ، وقريبُك لا يَمَلّكَ على القربِ ، ولا ينسَاك في البُعدِ ، عِزُّهُ عزٌّ لك ، وذُلُّه ذُلٌّ لك .

قال القرطبيُّ رحمه الله : « اتّفقتِ المِلّةُ على أنّ صلةَ الرّحمِ واجبةٌ ، وأنّ قطيعتَها محرَّمَةٌ »(١) .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا : « إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ »(٢) .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ ﷺ : « إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ ، وَتَدْفَعُ عَنْ مِيتَةِ السُّوءِ »(٣) .

معنى صلةِ الرحمِ

الرَّحمُ العامَّةُ رحمُ الدِّينِ ، ويجبُ صلتُها بملازمةِ الإيمانِ ، والمحبّةِ للمؤمنين ، ونصرتِهم ، والنصيحةِ لهم ، وتركِ أذيّتِهم ، والعدلِ بينهم ، والإنصافِ في معاملتِهم ، والقيامِ بحقوقِهم الواجبةِ ، كالقيام على معالجة

(١) تفسير القرطبي (٦/٥) .
(٢) أحمد (٢٥٢٩٨) .
(٣) الترمذي (٦٦٤) .

المرضى ، ومواساةِ الفقراءِ ، دونَ أن يمنَّ عليهم ، ونصرةِ المظلومين ، وحقوقِ الموتى ، مِن غسلِهم ، والصلاةِ عليهم ، ودفْنِهم ، وغيرِ ذلك من الحقوقِ المترتِّبةِ لأهلِ الإيمانِ .

الرَّحمُ الخاصّةُ رحمُ القرابةِ ، وتكونُ صلتُها بزيارتِهم ، وتفقُّدِ أحوالِهم ، والسؤالِ عنهم ، والإهداءِ إليهم ، والتصدُّقِ على فقيرِهم ، والتلطُّفِ مع وجيههم وغنيّهم ، وتوقيرِ كبيرِهم ، ورحمةِ صغيرِهم ، وتكونُ الصِّلةُ باستضافتِهم ، وحُسْنِ استقبالِهم ، وإعزازِهم ، ومشاركتِهم في أفراحِهم ، ومواساتِهم في أتراحِهم .

وتكونُ الصلةُ أيضاً بالدعاءِ للأرحامِ ، وسلامةِ الصدرِ لهم ، والحرصِ على نصحِهم ، ودعوتِهم للخيرِ ، وأمرِهم بالمعروفِ ، ونهيِهم عن المنكرِ ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ إذا فسدتْ .

وتكونُ الصلةُ أيضاً ببشاشةٍ عند اللّقاءِ ، ولينٍ في المُعاملةِ ، إلى طيبٍ في القولِ ، وطلاقةٍ في الوجهِ ، وزياراتٍ وصِلاتٍ ، وإحسانٍ إلى المحتاجِ ، وبذلٍ للمعروفِ ، ونصحِهم ، والنّصحِ لهم ، ومساندةِ مكروبِهم ، وعيادةِ مريضِهم ، وإقالة عثراتهم ، وتركِ مُضارّتِهم ، والمعنى الجامعُ لذلك كلِه : إيصالُ ما أمكَنَ من الخيرِ ، ودفعُ ما أمكنَ منَ الشرِّ .

ثمّ إنّ الأقاربَ يختلفون في أحوالِهم ، وطباعِهم ، ومنازلِهم ، فمنهم من يرضى بالقليلِ ، فتكفيه الزيارةُ السنويّةُ ، والمكالمةُ الهاتفيّةُ ، ومنهم من يرضى بطلاقةِ الوجهِ ، والصلةِ بالقولِ ، ومنهم من يعفو عن

حقَّه كاملاً ، ويلتمسُ المعاذيرَ لأرحامِه ، ومنهم مَن لا يرضى إلاّ بالزيارةِ المستمرّةِ ، وبالاهتمامِ الدائمِ ، فمعاملتُهم بهذا المقتضى تُعِينُ على حُسْنِ الصّلةِ بهم ، واستيفاءِ مودّتِهم .

وتبدأُ صلةُ الرحمِ بنوعٍ من الاتصالِ الهاتفيِّ أو البريديِّ ، ثم زيارتهمِ ، ثم تفقُّدِ أحوالِهم المعيشيّةِ والاجتماعيّةِ ، ثم مساعدتِهم بألطفِ أسلوبٍ ، ثم الأخذِ بيدِ القريبِ وأهلِه إلى اللهِ ، وحملِهم على طاعتِه ، والتقرّبِ إليه ، وهذا تاجٌ تتوَّجُ به هذه الصلةُ ، وعندئذٍ تكونُ هذه الصلةُ قد حقَّقتْ هدفَها الأكبرَ .

كيف تعامَلُ الرحمُ المسيئةُ ؟

حتى لو كان الأقاربُ من النوعِ المتعِبِ الذي يقابلُ الإحسانَ بالإساءة ، فلا يجوزُ أنْ تقاطعَهم ، لأنك تتعاملُ مع اللهِ تعالى طاعةً لأمرِه ، والتزامًا بسنّةِ رسولِه ﷺ ، وعلى ذلك يجبُ على المسلمِ أنْ يسلكَ كلَّ السبلِ ليصلَ أرحامه ، ويحسنَ إلى أقاربِه وجيرانِه .

إنّ ذوي الرّحِم غيرُ معصومين ، يتعرّضون للزّلَلِ ، ويقَعون في الخَللِ ، وتصدُرُ منهم الهَفواتُ ، ويقَعون في خطيئاتٍ كبيراتٍ ، فإن بَدَرَ منهم شيءٌ من ذلك فالزَمْ جانبَ العفوِ معهم ، فإنَّ العفوَ من شِيَمِ المحسنين ، وما زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلاّ عِزًّا ، وقابِلْ إساءَتَهم بالإحسانِ ، واقبلْ عُذرَهم إذا اعتذروا ، ولك في النبيِّ الكريم يوسفَ القدوةُ والأسوةُ ، فقد فعلَ إخوتُه معه ما فعلوا ، وعندما اعتذروا قَبِلَ عذْرَهم ، وصفَحَ عنهم الصفحَ الجميلَ ، ولم يوبِّخهم ، بل دعا لهم ، وسألَ اللهَ

المغفرةَ لهم ، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

فغُضَّ الطَّرْفَ عن الهفواتِ ، واعفُ عن الزّلاّتِ ، وأقِلِ العثراتِ ، تجْنِ الودَّ والإخاءَ ، واللينَ والصفاءَ ، وتتحقَّقْ فيك الشهامةُ والوفاءُ ، وداوِم على صِلة الرّحمِ ولو قطعوا ، وبادِرْ بالمغفرةِ وإنْ أخطؤوا ، وأحسِنْ إليهم وإن أساؤوا ، ودَعْ عنك محاسبةَ الأقربين ، ولا تجعَل عِتابَك لهم سبباً لبُعْدِهم عنك ، وكُنْ جوادَ النّفسِ ، كريمَ العطاءِ ، وجانبِ الشحَّ ، فإنّه من أسبابِ القطيعةِ ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا »[1] .

قيل لأحدهم : ما حقُّ الرّحمِ ؟ قال : « تُستَقبَل إذا أقبَلتْ ، وتُتْبَع إذا أدبَرتْ » .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلاً قَالَ : « يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونَ ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنْ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ »[2] .

أما إذا كانتِ الرّحمُ فاجرةً أو فاسقةً ، فتكونُ صلتُها بالعظةِ

(١) أبو داود (١٦٩٨) ، النسائي (١١٥٨٣) ، أحمد (٦٧٩٢) .
(٢) مسلم (٢٥٥٨) ، أحمد (١٠٢٨٩) .

والتذكيرِ ، وبألطفِ تعبيرٍ ، وبذلِ الجهدِ الكبيرِ ، فإذا أَعْيَتْكَ الحيلةُ في هدايتِهم كأنْ ترى منهم عناداً ، أو استكباراً ، أو أنْ تخافَ على نفسِك أنْ تتردّى معهم ، وتهوي في حضيضِهم فابتعدْ عنهم ، واهجُرْهم الهجرَ الجميلَ ، الذي لا أذى فيه ولا تحقيرَ ، وردِّدْ هاتين القاعدتين : « دعْ خيراً عليه الشر يَربُو » ، و : « دَرْءُ المفاسدِ مُقَدَّمٌ على جَلْبِ المنافعِ » ، وأكثِرْ من الدعاءِ لهم بالهدايةِ ، وأَعِدِ الكَرّةَ بَعْدَ الكَرّةِ ، والمرّةَ تلوَ المرّةِ .

وإكرامُ ذوي القراباتِ مأمورٌ به ، على ألاّ يكونَ في التّقديمِ بخسٌ لأحدٍ أو هضمٌ لآخرين ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

ثمارُ صلةِ الرَّحمِ

صلةُ الرّحمِ تدفَعُ بإذنِ اللهِ نوائبَ الدّهرِ ، وترفعُ بأمرِ اللهِ عن المرءِ البَلايا ، قَالَ جبريلُ للنبي ﷺ : « ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ ، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : زَمِّلُونِي ، زَمِّلُونِي ، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ : لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : كَلاَّ ، وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ »[1] .

---

(١) البخاري (٣) ، مسلم (١٦٠) .

لقد خَلقَ اللهُ الرحمَ ، وشقَّ لها اسمًا من اسمِه ، ووعَد ربُّنا جلّ وعلا بوصلِ مَن وصلَها ، ومَن وصَله الرحيمُ ، وصلَه كلُّ خيرٍ ، ولم يقطَعه أحدٌ ، ومن بتَره الجبّارُ لم يُعْلِهِ بشرٌ ، وعاشَ في كَمَدٍ .

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ قَالَتْ الرَّحِمُ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ ، قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى يَا رَبِّ ، قَالَ : فَهُوَ لَكِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ »[١] .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَقُولُ : مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ »[٢] .

إنّ صلةَ الرّحمِ محبّةٌ للأهلِ ، وبَسطٌ للرّزقِ ، وبركةٌ في العُمرِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ ، مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ ، مَنْسَأَةٌ فِي أَثَرِهِ »[٣] .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ »[٤] .

---

(١) البخاري (٤٥٥٢) ، مسلم (٢٥٥٤) .
(٢) مسلم (٢٥٥٥) .
(٣) الترمذي (١٩٧٩) ، أحمد (٨٨٥٥) .
(٤) البخاري (١٩٦١) ، مسلم (٢٥٥٧) .

صلةُ الرّحمِ أمارةٌ على كَرَم النّفس ، وسَعَةِ الأفُق ، وطيبِ المنبَتِ ، وحُسن الوَفاء ، ولهذا قيل : مَن لم يَصْلُحْ لأهلِه لم يَصْلُحْ لك ، ومَن لم يذُبَّ عنهم لم يذبَّ عنك ، يُقْدِمُ عليها أولو التّذكرةِ وأصحابُ البصيرةِ .

وصلةُ الرَّحمِ مدعاةٌ لرفعِ ذِكرِ الواصل ، وسببٌ للذكرِ الجميلِ ، وموجبةٌ لشيوعِ المحبّةِ ، وعزّةُ المتواصلين .

صلةُ الرَّحمِ تقوّي المودَّةَ ، وتزيدُ المحبّةَ ، وتتوثَّقُ بها عُرى القرابةِ ، وتزولُ بها العداوةُ والشّحناءُ ، فيها التعارفُ والتواصلُ ، والشعور بالسّعادة .

واقعُ معظمِ المقصِّرين

إنّ كثيرًا من الناسِ مضيِّعون لهذا الحقِّ ، مفرِّطون فيه ، فمنَ الناسِ من لا يعرفُ قرابتَه لا بصلةٍ ولا بمالٍ ، ولا بجاهٍ ولا بحالٍ ، ولا بخُلقٍ ولا بودٍّ ، تمضي الشهورُ ، وربما الأعوامُ ولا يقومُ بزيارتِهم ، ولا يتودّدُ إليهم لا بصلةٍ ولا بهديةٍ ، ولا يدفعُ عنهم مضرّةً ولا أَذِيّةً ، بل ربما أساء إليهم ، وأغلظَ القولَ لهم .

ومن الناسِ مَن لا يشاركُ أقاربَه في أفراحِهم ، ولا يواسيهم في أتراحِهم ، ولا يتصدّقُ على فقرائِهم ، بل تجدُه يقدِّمُ عليهم الأباعدَ في الصلاتِ والهباتِ .

ومن الناس مَن يصلُ أقاربَه إنْ وصلوه ، ويقطعُهم إنْ قطعوه ، وهذا في الحقيقةِ ليس بواصلٍ ، وإنما هو مكافئٌ للمعروفِ بمثلِه ، وهو حاصلٌ للقريبِ وغيرِه ، وإنما الواصلُ حقيقةً هو الذي يتّقي اللهَ في

أقاربه ، فيصلُهم لله ، سواء وصلوه أو قطعوه ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا »(١) .

ومن مظاهرِ القطيعةِ أنْ تجدَ بعضَ الناسِ يحرصُ على دعوةِ الأباعدِ ، ويغفلُ أو يتغافلُ عن دعوةِ الأقاربِ ، وهذا ما لا ينبغي ؛ فالأقربون أولى بالمعروفِ ، قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

نتائجُ قطيعةِ الرَّحمِ

إنّ معاداة الأقاربِ شرٌّ وبلاءٌ ، الرّابحُ فيها خاسِرٌ ، والمنتصِرُ مهزومٌ ، وقطيعةُ الرّحمِ مِن كبائرِ الذّنوبِ ، وقبائحِ العيوبِ ، متوَعَّدٌ صاحبُها باللّعنةِ والثبور ، قال تعالى :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢ـ٢٣] .

فالتدابرُ بين ذوِي القربَى مؤذِنٌ بزوالِ النِّعمةِ ، وسوءِ العاقبةِ ، وتعجيلِ العقوبة ، فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ »(٢) ، قَالَ سُفْيَانُ : يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ .

وعقوبتُها معجَّلة في الدّنيا قبلَ الآخرة ، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي

(١) البخاري (٥٦٤٥) ، الترمذي (١٩٠٨) ، أبو داود (١٦٩٧) ، أحمد (٦٥٢٤) .

(٢) البخاري (٥٦٣٨) ، مسلم (٢٥٥٦) .

الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْبَغْيِ - أي الظلم - وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ »[١] .

إنّ قطيعةَ الرّحمِ سببٌ للذِلّةِ والصّغارِ ، والضّعفِ والتفرّقِ ، مجلَبةٌ للهمِّ والغمّ ، فقاطعُ الرّحم لا يثبُتُ على مؤاخاةٍ ، ولا يُرجَى منه وفاءٌ ، ولا صِدقٌ في الإخاءِ ، يشعرُ بقطيعةِ اللهِ له ، ملاحَقٌ بنظراتِ الاحتِقارِ ، مهما تلقَّى من مظاهِرِ التبجيلِ ، لقد كان الصحابةُ رضي الله عنهم يستوحِشون مِن الجلوسِ مع قاطِعِ الرّحم .

ومن كان بينه وبين رحمٍ له عداوةٌ فليبادِرْ بالصّلةِ ، وليعفُ وليصفحْ ، ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

الخطوةُ العمليّةُ

إنّ لحُسنِ الخُلُق تأثيرًا في الصّلةِ ، فالزَم جانبَ الأدَبِ مع ذوي القربَى ، فإنّ مَن حَفِظَ لسانَه أراحَ نفسَه ، وللهديّةِ أثرٌ في اجتلابِ المحبّة ، وإثباتِ المودّةِ ، وإذهابِ الضغائنِ ، وتأليفِ القلوبِ .

إنّ الرسولَ ﷺ يحذِّرُ من الخصامِ والخلافِ والقطيعة بين المسلمين عموماً ، فكيف إذا كان الأمر بين الأقارب ؟ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ ، يَلْتَقِيَانِ ، فَيَصُدُّ هَذَا ، وَيَصُدُّ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ »[٢] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١١) ، أبو داود (٤٩٠٢) ، ابن ماجه (٤٢١١) .
(٢) البخاري (٥٨٨٣) ، الترمذي (١٩٣٢) ، أحمد (٢٣٥٧٥) .

ويقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

يحذِّرُنا النبيُّ ﷺ مِن مصيرِ قاطعِ الرحمِ في الآخرة ، فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » ، قَالَ سُفْيَانُ : يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ(١) .

فلنحذرْ مِن قطيعةِ الرحمِ ، فإنها سببٌ للعنةِ اللهِ وعقابِه ، يقول الله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢ـ٢٣] .

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٥] .

مِن هدي النبيِّ ﷺ في صلةِ الرَّحِمِ

كان رسولُ اللهِ ﷺ أرقَّ الناسِ ، وأعفَّهم ، وأوصلَهم ، وأحلَمهم ؛ ولذلك ذكر اللهُ خُلُقَه ومناقبَه في القرآنِ ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقال له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

لقد بلغَ ﷺ في صلةِ الرحمِ مبلغاً عظيماً ، ضربَ به المثلَ الأعلى على مرِّ التاريخِ ، فما سمعتِ الدنيا بأوصلَ منه ﷺ ، قام قرابتُه ، أبناءُ

(١) البخاري (٥٦٣٨) ، مسلم (٢٥٥٦) .

عمّه وغيرُهم ، فأخرجوه من مكّةَ ، وطاردوه ، وشتَموه ، وآذوه ، حاربوه في المعاركِ ، ونازلوه في الميدانِ ، وقاموا بحربٍ عسكريةٍ وإعلاميةٍ واقتصاديّةٍ ضدّه ، فلما انتصرَ ماذا فعل؟

« دخلَ مكّةَ منتصراً ، ووقفتْ له الأعلامُ مكبِّرةً ، وطنّتْ بذكرِ نصرِه الجبالُ والوهادُ ، فلما انتصرَ وقفَ ﷺ عند حلقِ بابِ الكعبةِ منحنياً ، وهو يقول للقرابةِ وللعمومةِ : ما ترون أني فاعلٌ بكم؟ فيتصوَّرون الجزاءَ المرَّ ، والقتلَ الحارَّ ، والموتَ الأحمرَ ، فيقولون وهم يتباكون : أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريمٌ ، فتدمعُ عيناه ، ويقول ﷺ : اذهبوا فأنتم الطلقاءُ! .

كأنه يقول : عفا اللهُ عنكم ، وسامحكم .

ويأتي ابنُ عمّه أبو سفيانَ بن الحارثِ ، فيسمعُ بالانتصارِ ، وقد آذى الرسولَ ﷺ ، وشتمَه ، وقاتَله ، فيأخذُ هذا الرجلُ أطفالَه ، ويخرجُ من مكةَ ، فيلقاه عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه ، ويقول له : يا أبا سفيانَ! إلى أين تذهبُ؟ قال : أذهب بأطفالي إلى الصحراءِ فأموتُ جوعاً وعرياً! واللهِ لئن ظفرَ بي محمد ـ ﷺ ليقطعنّي بالسيف إرباً إرباً! فيقول عليٌّ ـ وهو يعرفُ رسولَ الله ﷺ ـ : أخطأتَ يا أبا سفيانَ! إن الرسولَ ﷺ أوصلُ الناسِ ، وأبرُّ الناسِ ، وأكرمُ الناسِ ، فعدْ إليه ، وسلِّمْ عليه بالنبوّةِ ، وقل له كما قال إخوةُ يوسف ليوسف : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف : ٩١] ، فيأتي بأطفاله ، ويقفُ عند رأسِ المصطفى ﷺ ، ويقول : يا رسولَ الله ، السلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه ، ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ ،

فيبكي ﷺ ، وينسى تلك الأيامَ ، وتلك الأعمالَ ، وتلك الصحفَ السوداءَ ، ويقول : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1] .

ويقولُ أبو سفيانَ بنُ حربٍ : يا بن أخي ، ما أوصلَك ! ما أرحمَك ! ما أحكمك ! ما أعقلك !

فهل من متَّسِمٍ بأخلاقِه ؟ وهل من مُقتدٍ بأفعالِه ؟ فإنه الأسوةُ الحقُّ ، وإن اتّباعَه نجاةٌ من العارِ والدمارِ والنارِ .

تأتيه أختُه من الرضاعة ﷺ وكانت في سبيٍ ، وقد ابتعدتْ عنه عقوداً عديدةً ، فتأتيه وهو لا يعرفها ، وهي لا تعرفُه ، وتسمعُ وهي في باديةِ بني سعدٍ في الطائفِ بانتصارِه ، فتأتي لتسلِّمَ على أخيها من الرضاعةِ ، وهو ﷺ تحت سدرةٍ ، والناسُ بسيوفِهم بين يديه ، وهو يوزِّعُ الغنائمَ بين العربِ ، فتستأذنُ ، فيقول لها الصحابةُ : من أنت؟ فتقولُ : أنا أختُ رسولِ اللهِ ﷺ من الرضاعةِ ، أنا الشيماءُ بنتُ الحارثِ ، أرضعتني أنا وإياه حليمةُ السعديّةُ ، فيخبرون الرسولَ ﷺ فيتذكّرُ القربى وصلةَ الرحمِ ، ويقومُ لها ليلقاها في الطريقِ ، ويرحِّبُ بها ترحيبَ الأخ بأختِه بعد طولِ غيابٍ ، وبعدَ الوحشةِ والغربةِ ، ويأتي بها ، ويُجلِسُها مكانَه ، ويظلِّلُها من الشمسِ[2] .

تصوَّروا رسولَ البشريةِ ، ومعلِّمَ الإنسانيّةِ ، ومزعزعَ كيانِ الوثنيةِ ،

---

(١) انظر القصة برواياتها وألفاظها في سنن البيهقي الكبرى (٩/ ١١٨) ، والسيرة النبوية (٥/ ٧٣ ـ ٧٤) ، وتاريخ الطبري (٢/ ١٦١) .

(٢) ذكر قريبا من هذه القصة القرطبي في تفسيره (٨/ ١٠٢) .

يظلِّلُ هذه العجوزَ أختَه من الرضاعةِ من الشمسِ ، ويتركُ الناسَ وشؤونَهم ، ويقبلُ عليها ويسألُها ، ويقول لها : يا أختاه كيف حالكم ؟ يا أختاه اختاري الحياةَ عندي ، أو تريدين أهلَكِ؟ فتقول : أريدُ أهلي ، فيمتِّعها بالمالِ ، ويعطيها مئةَ ناقةٍ ، ليعلمَ الناسَ صلةَ الأرحامِ .

يا من كانت الرحمةُ مهجتَك ، والعدلُ شريعتَك ، والحبُّ فطرتَك ، والسموُّ حرفتَك ، ومشكلاتُ الناسِ عبادتَك !

لقد نُقِلَ عنك في أحاديثك الصحيحةِ أنك تقلقُ أشدَّ القلقِ يوم القيامةِ على أمّتك وأصحابك ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : فَأَقُولُ ـ يعني يوم القيامة ـ : « أَصْحَابِي ، أَصْحَابِي ، فَقِيلَ : إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، قَالَ : فَأَقُولُ : بُعْدًا ، بُعْدًا ، أَوْ قَالَ : سُحْقًا ، سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي »[1] .

إنّ الذي أحدثوه بَعدك أنهم قطعوا صلةَ عمّاتِهم وخالاتِهم ، وبناتِهم وأخواتِهم ؟ وحرموهنّ من الميراثِ الذي فرضَه اللهُ لهنّ ؛ حتى سمعْنا ورأينا من الأمهاتِ الفقيراتِ مَن تضطرّ الواحدةُ منهنّ أن تقيمَ دعوى على ابنِها المترفِ مِن أجلِ أنْ ينفقَ عليها ، هانَ أمرُ اللهِ علينا مِن بعدِك فهنًّا على اللهِ .

أسبابُ قطيعةِ الرَّحِمِ

وإذا أمعنَّا النظرَ في أسبابِ قطيعةِ الأرحامِ وجدْنا أنّ من تلك الأسبابِ :

---

(١) أحمد (١١٢٣٦) .

- الجهلُ بعواقبِ القطيعةِ ، والجهلُ بفضائلِ الصلةِ ، والتفكّرُ في الآثارِ المترتّبةِ على الصلةِ ؛ فإنّ معرفةَ ثمراتِ الأشياءِ ، واستحضارَ حُسنِ عواقبِها من أكبرِ الدواعي إلى فعْلِها ، وتمثُّلِها ، والسعيِ إليها . وإنّ النظرَ في عواقبِ القطيعةِ ، وتأمّلَ ما تجلبُه مِن همٍّ ، وغمٍّ ، وحسرةٍ ، وندامةٍ ، ونحوِ ذلك ، فهذا ممّا يُعينُ على اجتنابِها ، والبعدِ عنها .

- ضعفُ التقوى ، والكِبْرُ ، فبعضُ الناس إذا نالَ منصباً رفيعاً ، أو حازَ مكانةً عاليةً ، أو كان تاجراً ، أو مشهوراً ؛ تكبَّر على أقاربِه ، وأنفَ من زيارتِهم والتودُّدِ إليهم .

وممّا يحبِّب الإنسانَ لقرابتِه ، ويُدنِيه منهم تواضُعه ولينُ جانبِه :

من كان يحلمُ أن يسودَ عشيرةً فعليه بالتقوى ولينِ الجانبِ
ويغضّ طرفاً عن مساوي من أسا منهم ويحلمُ عند جهلِ الصاحبِ

الانقطاعُ الطويلُ الذي يقودُ إلى الوحشةِ ، واعتيادِ القطيعةِ

- العتابُ الشديدُ ، فبعضُ الناسِ إذا زاره أحدٌ من أقاربِه أمطرَ عليه وابلاً من التقريعِ والعتابِ على تقصيرِه في حقِّه ، وإبطائِه في المجيءِ إليه ؛ ومِن هنا تحصلُ النفرةُ من ذلك الشخصِ ، والهيبةُ من المجيءِ إليه .

وعلاجُ ذلك تحمُّلُ عتابِهم ، وحمْلُه على أحسنِ المحاملِ ، فهذا أدبُ الفضلاءِ ، ودأبُ النبلاءِ ممّن تمّتْ مروءتُهم ، وكمُلتْ أخلاقُهم ، وتناهى سؤددُهم ، ممّن وسِعوا الناسَ بحلمِهم ، وحسنِ تربيتِهم ، وسَعَةِ أُفُقِهم ؛ فإذا عاتبَهم أحدٌ من الأقاربِ ، وأغلظَ عليهم لتقصيرِهم في حقِّه

لم يثرِّبوا عليهم ، ولم يجاروه في عتابِه ، بل يتلَّطفون به ، ويحملون عتابَه على المحملِ الحسنِ ، فيرون أنّ هذا المُعاتِبَ مُحِبٌّ لهم ، حريصٌ على مجيئهم ، ويُشعِرونه بذلك ، ويشكرونه ، ويعتذرون إليه ، حتى تخفَّ حِدَّتُه ، وتهدأَ ثورتُه ، فبعضُ الناسِ يقدِّر ويحبُّ ؛ ولكنه لا يستطيعُ التعبيرَ عن ذلك إلا بكثرةِ اللومِ والعتابِ ، والكرامُ يحسِنُون التعاملَ مع هؤلاءِ ، ولسانُ حالِهم يقولُ : لو أخطأتَ في حُسنِ أسلوبِك ما أخطأتَ في حسنِ نيتِك .

ـ التكلُّفُ الزائدُ ، فهناك من الناسِ مَن إذا زاره أقاربُه تكلَّف لهم أكثرَ مِن اللازمِ ، وخسرَ الأموالَ الكثيرةَ ، وقد يكونُ ـ مع ذلك ـ قليلَ ذاتِ اليدِ ، ومِن هنا تجدُ أقاربَه يقصُرون عن المجيءِ إليه ، خوفاً من إيقاعِه في الحرجِ .

ـ عدمُ الاهتمامِ بزيارتهم ، إذْ تجدُ مَن إذا زارَه أقاربُه لم يهتمّ بِهمْ ، ولم يصغِ لحديثِهم ، ولم يفرحْ بمقدمِهم ، ولم يستقبلْهم إلا بتثاقلٍ وبرودةٍ ، ممّا يقلِّلُ رغبتَهم في زيارتِه .

ـ الشحُّ والبخلُ ، فمِن الناس مَن إذا رزقه اللهُ مالاً أو جاهاً تهرَّبَ مِن أقاربِه ، حتى لا يرهقونه بطلباتِهم المتنوِّعةِ .

وعلاجُ ذلك ببذلِ المستطاعِ لهم مِن الخدمةِ بالنفسِ ، أو الجاهِ ، أو المالِ ، وأن يدَعَ المنّةَ عليهم ، والتعاونِ على حلِّ مشكلاتِهم الماديةِ والاجتماعيةِ والدينيةِ ، فإذا ما احتاجَ أحدٌ مِن أفرادِ الأسرةِ مالاً لزواجٍ ، أو نازلةٍ أو غيرِ ذلك قاموا بدراسةِ حالِه ، ورفدوه بما يستحقُّ ، فهذا مما يولِّدُ المحبّةَ بين الأقاربِ .

ـ تأخيرُ قسمةِ الميراثِ ، فقد يكونُ بين الأقاربِ ميراثٌ لم يقسَمْ ، إمّا تكاسلاً منهم ، أو مِن قلّة وفاقٍ فيما بينهم ، وكلّما تأخّرَ قسمُ الميراثِ شاعت العداوةُ ، وكثُرتِ المشكلاتُ ، وزادَ سوءُ الظنِّ ، وحلّتِ القطيعةُ .

ـ الشراكةُ بين الأقاربِ ، فكثيراً ما يشتركُ الإخوةُ أو غيرُهم من الأقاربِ في مشروعٍ أو شركةٍ ما ، دونَ أنْ يتّفقوا على أسسٍ ثابتةٍ ، ودونَ أن تقومَ الشراكةُ على الوضوحِ والصراحةِ ، بل تقومُ على المجاملةِ ، والحياءِ ، وحسنِ الظنِّ ، فإذا زادَ الإنتاجُ ، واتّسعتْ دائرةُ العملِ دبَّ الخلافُ ، وساد البغيُ ، ونزغَ الشيطانُ بينهم ، وحدثَ سوءُ الظنِّ ، ولا سيّما إذا كانوا مِن قَليلِي التقوى والإيثارِ ، أو كان بعضُهم مستبدًّا برأيِه ، أو كان أحدُ الأطرافِ أكثرَ جدّيةً من صاحبِه ، ومن هنا تسوءُ العلاقةُ ، وتحلُّ الفرقةُ ، وربما وصلتْ بهم الحالُ إلى الخصوماتِ في المحاكمِ ؛ فيصبحون سبّةً لغيرِهم ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص : ٢٤] .

ـ الاشتغالُ بالدنيا ، والانشغالُ بها عن أداءِ واجباتِه تجاهَ أرحامِه ، لذلك وجبَ أن تكونَ لهم اجتماعاتٌ دوريّةٌ شهريّةٌ أو نصفُ شهريةٍ ، أو نحو ذلك .

ـ الطلاقُ بين الأقاربِ إذا لم يكن بإحسانٍ .

ـ بُعد المسافةِ ، والتكاسلُ عن الزيارةِ .

ـ وقد يكونُ التقاربُ في المساكنِ بين الأقاربِ سبباً للقطيعةِ ، لِما

يكونُ من التزاحمِ على الحقوقِ ، ولِما يحدثُ بين الأولادِ من مشكلاتٍ قد تنتقلُ إلى الوالدين .

ـ قلّةُ التحمُّلِ والصبرِ على الأقاربِ .

ـ نسيانُهم في الولائمِ والمناسباتِ ، فقد يفسَّرُ هذا النسيانُ بأنه تجاهلٌ واحتقارٌ ، فيقودُ ذلك الظنُّ إلى الصرمِ والهجرِ .

ومِن الطُّرقِ المُجديةِ أن يسجِّلَ أسماءَ أقاربِه ، وأرقامَ هواتفِهم ، ثم يحفظُها عنده ، حتى يستحضرهم جميعاً ، ويتّصلَ بهم إمّا مباشرةً أو عن طريقِ الهاتفِ ، أو غيرِ ذلك .

الإخلاصُ في صلةِ الرَّحِمِ

يراعَى في صلةِ الأرحامِ أنْ تكونَ الصِّلةُ قربةً للهِ ، خالصةً لوجهِه الكريمِ ، وأنْ تكونَ تعاوناً على البرِّ والتقوى ، ولا يقصدُ بها حميةَ الجاهليةِ .

الجالياتُ الإسلاميةُ وصلةُ الرحمِ

إنّ الجالياتِ الإسلاميةَ والعربيةَ منتشرةٌ في شتَّى بقاعِ الأرضِ ، وبعضُ الجالياتِ في بعضِ البلادِ الغربيةِ القريبةِ والبعيدةِ تفوَّقتْ تفوُّقاً يَلفتُ النظرَ ، فبينما لا يزيدُ عددُ الحاملين للدكتوراه من السكانِ الأصليّين على الثمانيةِ في الألفِ نجدُ أنّ الذين يحملون الدكتوراه في الجالياتِ الإسلاميةِ يزيدُ على ثلاثةٍ وثلاثينَ في الألفِ ، هؤلاء المتفوِّقون علمياً تسلّموا مناصبَ رفيعةً في بلادِ المهجرِ في الطبِّ والفلكِ والاقتصادِ والذرةِ .

لكنْ ما علاقةُ أفرادِ الجالياتِ الإسلاميةِ بصلة الأرحام؟

الحقيقةُ أنّ أفرادَ الجالياتِ الإسلاميةِ والعربيةِ ينبغي أن يكونوا رسلاً لإسلامِهم ولأوطانِهم ، وهم إذ ينقلون للغربِ القريبِ والبعيدِ حقائقَ الإسلامِ ومبادئَه وقيمَه دعوةً ، ويطبّقونها منهجاً في حياتِهم ، يأخذُ الغربُ من الإسلامِ موقفاً غيرَ هذا الموقفِ الذي يؤلِمُنا أشدَّ الألمِ ، وهم إذ ينقلون لأمّتِهم التي ترعرعوا في كنفِها ، ونبتَ لحمُهم مِن خيراتِها ، وتلقّوا العلمَ في جامعاتِها ، أفضلَ ما في الغربِ من علمٍ ونظامٍ وعملٍ دؤوبٍ ، ولا ضيرَ في ذلك ، لأنّ ثقافةَ أيّةِ أمّةٍ هي ملكُ البشريةِ جمعاءَ ، لأنها بمنزلةِ عسلٍ استُخلِصَ من زهراتِ مختلفِ الشعوبِ على مرِّ الأجيالِ ، وهل يُعقَلُ إذا لَدَغَتْنَا جماعةٌ من النحلِ أنْ نقاطعَ العسلَ الذي حصلته مِن أزهارِنا؟ فإن فعلتِ الجالياتُ الإسلاميةُ والعربيةُ ذلك تكون قد وصلتْ رحمَها بطريقةٍ معاصرةٍ ، ولا أدلَّ على ذلك مِن أنّ كبارَ مفكّري الغربِ يعترفون بفضلِ الحضارةِ الإسلاميةِ على العالَمِ .

يقولُ غوته : « إنّ دينَ الإسلامِ دينُ إخلاصٍ ، ودينُ اجتماعٍ وأخلاقٍ ، ورعايةٍ لبني الإنسانِ » .

ويقول برناردشو : « الإسلامُ هو الدينُ الذي نجدُ فيه حسناتِ الأديانِ كلِّها ، ولا نجدُ في الأديانِ حسناتِه » .

ويقول غوستاف لوبون : « إنّ الأممَ لم تعرفْ بحقٍّ فاتحين راحمين متسامحين مثلَ العربِ ، ولا ديناً سمحاً مثلَ دينِهم » .

ويقولُ ولي عهدِ بريطانيةَ : « إنّ كثيراً مِن المزايا التي تفخرُ بها أوربةُ

العصريةُ جاءت أصلاً من إسبانيا في أثناءِ الحكمِ الإسلاميّ » .

ويقول ديورانت : « إن محمداً ـ ﷺ ـ كان من أعظمِ عظماءِ التاريخِ ، فقد أخذَ على نفسِه أنْ يرفعَ المستوى الروحيَّ والأخلاقيَّ للناسِ ، وقد نجحَ في تحقيقِ هذا الغرضِ نجاحاً لم يُدَانِه فيه أيُّ مصلحٍ آخرَ » .

هذه هي منزلةُ صلةِ الرحمِ في الإسلامِ ، وأكرِمْ بها من منزلةٍ وأعظِمْ .

* * *